ازدواجيّة الخطاب في تناول السّيرة المحمّديّة في الأدب الغربيّ

أ. سميرة دمبحري

المدرسة العليا للأساتذة – قسنطينة

ملخّص :

يتناولُ هذا المقال شهاداتٍ شعريّة و أخرى نثريّة لأقلام غربيّة شهيرة ، عُرفتْ في القرنيْن الثّامن عشر والتّاسع عشر ؛ بدحضها أكاذيبَ الكنيسة المتعصّبة و أضاليلَ الفلاسفة و المفكّرين في الغرب الحاقد ، فدافعت عن الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – غير أنّ أصحابَ هذه الأقلام صدّقوا بعض التُّرهاتِ التي قيلت عنه هنا وهناك ، فوظّفوها فيما كتبوا ، ممّا خلق عندهم نوعًا من الازدواجيّة في الخطاب الذي استخدموه لخدمة هذه القضيّة .

Abstract :

In the article that follows , some great famous foreign works in littérature, published between 18th and 19th centries, are exposed. These works were knowen for defending our prophet Mohammed « peace be upon him » and supporting his beliefs , and for denying the churche's bigoted lies and philosophers' wrong conclusions about islam . However , the authors then couldn't take one side, because of believing in several irrational rumors that were said which added a kind of duplicity in their writings.

مقدّمة :

إنّ الباحث في المؤلّفات و السّير التي خصّصها أصحابُها من أدباء الغرب ومفكّريه للحديث عن الإسلام ، لَيندهشُ من المفارقة التي وسمت أعمالهم ، فمنهم من وطّن نفسه لنشر الأضاليل عن الرّسول– صلّى الله عليه و سلّم – فعكسَ الحقائق و شوّهَها ، و منهم من أحبَّ الإسلام وامتدحَ رسوله الكريم ، وفريقٌ آخر لم يتوانَ عن توظيف معلوماتٍ مضلّلة تعكسُ الحقائق وتشوّهُها و إن كان بصدد مدحه صلّى الله عليه و سلّم ، و آخرون انتقلوا من مستوى الحقد الأعمى إلى الاعتراف بالخطأ وبالتالي

إنصاف سيّد الخلق أجمعين . وفيما يأتي عرض لأشهر أدباء الغرب ممّن تناولوا السيّرة النّبويّة بخطابيْن مختلفيْن و أحيانا متناقضيْن :

1- **فولتير** : (1694م-1778م)

هو أحدُ أعلام حركة التّنوير الفرنسية ، و صاحبُ مسرحية " التعصّب أو محمّد النّبي " : " le fanatisme ou mahomet le prophète "، و التي وضعها سنة 1741م و هاجم من خلالها الإسلام ممثّلا في شخصية النّبي – صلّى الله عليه و سلّم – و تمّ عرضها في مدينة ليل في السّنة نفسها . وشكّك فولتير خلال فصولها في حديث جبريل إلى الرّسول الكريم ، كما أشار إلى سوء معاملة النّساء في الإسلام و إجبارهنّ على الإيمان ، و اعتبر أنّ الإسلام انتشر باستعمال السّيف . ومع أنّ دراساتٍ حديثةٍ وكثيرةٍ تؤكّدُ أنّه أراد من وراء نقده للإسلام و لرسوله – صلّى الله عليه و سلّم- انتقادَ الفكر الكنسيّ المتعصّب إلاّ أنّه عُدَّ "صاحب واحدة من أكثر الأطروحات و الكتابات العدائية ضدّ النّبي محمّد " [1]. علمًا أنّ المسرحية قد توقّف عرضُها في باريس بعد ثلاثة أيام فقط من بدايته " لأنّ النّقادَ و المراقبين قد اكتشفوا أنّ شخصية النّبي – صلّى الله عليه و سلّم – قد اتّخذت من المسرحية ستارًا لنقد الكنيسة الكاثوليكية و رجالها " [2].

و فولتير هو واحد من فلاسفة و أدباء التّنوير ، الذين لم يكن همّهم هو الدّفاع عن المسيحية و مهاجمة الإسلام كما فعل كلّ أسلافهم طوال قرون ، وإنّما قد تجنّدوا لمحاربة التعصّب الأعمى و دعوا إلى الحرية الفكرية و الدّينية ، و فولتير " أبعد الناس عن التّعلّق بالأفكار المسبقة دينية كانت أو تقليدية ، و ليس من يعدله في تعلّقه بالفكر الحرّ " [3].

و قد عُرفَ منذ بداياته بتهجّمه على رجال الدّين ، و ليس أدلّ على ذلك من قوله في مأساة "أوديب" التي نظمها سنة 1718م :

كهنتُكم ليسوا ما يظنُّه النّاسُ الجهلةُ

---

[1]- عبد الرّاضي محمّد عبد المحسن : الرّسول الأعظم في مرآة الغرب . دط . منشورات رابطة العالم الإسلاميّ ، الرّياض ، 1432هـ/ 2011م . ص 52 .

[2]- المرجع نفسه ، ص ن .

[3]- أندريه كريسون : فولتير ، حياته و آثاره و فلسفته . ط 02 . ترجمة : صباح محي الدّين . منشورات عويدات ، بيروت – باريس ، 1984م . ص 43 .

فإنّ تصديقَنا لهم هو أساسُ علمِهم [1]

و ممّا يؤَكِّدُ هذا الكلام ؛ أنّ فولتير تراجع عن هذه العدائيّة التي ظهرت في مسرحيته المذكورة سالفا ، ودوّن في رسالته عن التّسامح أقوالا أبدى من خلالها انفتاحًا كبيرا إزاء الأديان التي لم يكن يؤمن بأحدها، و دعا الله قائلا : " لم أعد إلى البشر أتوّجه ، بل إليك يا ربّ جميع الكائنات و العوالم و الأزمان ، فإن جاز لمخلوقات ضعيفة ، تائهة في فضاء العالم اللامحدود ، و غير منظورة من قبل بقية الكون ، أن تتجرّأ فتطلب منك شيئا ... أن تتلطّف و تنظر بعين الرّحمة و الشّفقة إلى الأخطاء و الضّلالات المترتّبة على طبيعتنا ، ولا تسمح بأن تكون هذه الأخطاء و الضّلالات سبب هلاكنا ... "[2] . و يعبّر عن رغبته في زوال الفوارق بين البشر ، مهما كان نوعها ، فيقول : " حبّذا لو تذكّر البشرُ قاطبةً أنّهم إخوة " [3] .

و في مقالته الموسومة بـ : « Essai sur les mœurs et l'esprit des nations":"بحث حول عادات و أخلاق الأمم " ؛ يُظهرُ نوعا من الدّفاع عن بعض المعتقدات الإسلامية التي ظهرت في حياة رسول الله – صلّى الله عليه و سلّم- كقدوةٍ للمسلمين ، من ذلك تعدّد الزوجات إذْ يرى فولتير أنّ محمّدا – صلّى الله عليه و سلّم – توقّف عند أربعة نساء ، في حين أنّ العددَ كان أكبر من ذلك بكثير في الدّيانات القديمة ، فحسب زعمه كان لداود ثماني عشرة و لسليمان سبعمائة زوجة و ثلاثمائة محظية ، ويصل إلى نتيجة مفادها أنّ دين محمّد كان أكثر انضباطًا و التزامًا .

« On ne fait pas reflexion que toutes les les anciennes religions de l'orient ont admis la pluralité des femmes , mahomet en reduisit a quatre le nombre illimité jusqu'alors . Il est dit que David avait dix huit femmes et Salomon sept cent , avec trois cents concubine »[4].

---

[1]- المرجع نفسه ، ص 13 .

[2]- فولتير : رسالة في التّسامح . ط 01 . ترجمة : هنريت عبّودي . دار بترا للنشر و التوزيع ، دمشق ، 2009 م . ص 169 .

[3]- المصدر نفسه ، ص ن .

[4] - voltaire :Essai sur les mœurs et l'esprit des nations . Chez le fèvre ,Librairie , Werdet et Lequien fils, Paris , 1829 . p258 .

نقلا عن موقع :

http : / / classiques . uquc . ca /

ولا يتوقّف فولتير عند ذلك ، بل إنّه لَيبدو مناصرًا لفكرة التعدّد ، حين يقول أنّ المرأة تفقد جمالها و خصوبتها في المناطق الحارّة سريعا ، والرّجل الذي يرى مجده و استقراره في إنجاب عدد كبير من الأبناء ؛ يحتاج و لا شكّ إلى امرأة أخرى تحلّ محلّ الزّوجة التي لم تعد ذات نفع .

« Les femmes dans les climats chauds , cessent de bonne heure d'être belles et fécondes . un chef de famille qui met sa gloire et sa prospérite dans un grand nombre d'enfants , a besoin d'une femme qui remplace une épouse inutile » [1] .

ثُمّ إنّه يصوّر أتباع محمّد – صلّى الله عليه و سلّم- بكثير من الإنصاف ، حين يرى أنّهم بمجرّد أنْ تخطّوا حدود الحجاز ، أظهروا تسامحا كبيرا مع جميع الشعوب ، فلم يجبروا أحدا على اعتناق الإسلام ، بل إنّهم يخيّرون الجميع بين الدّخول في الدّين الجديد أو دفع الجزية .

« Les arabes , franchissant les limites de leur pays , dont ils n'étaient point sortis jusqu'alors , ne forcèrent jamais les étrangers à recevoir la religion musulmane ou de payer tribut » [2].

و يختم فولتير مقالته بتكذيب كلّ الذين كتبوا عن الإسلام ولم ينصفوا رسوله – صلّى الله عليه وسلّم- مؤكّدا أنّ الحقيقة ستنتصر على هؤلاء جميعا .

« Le peu que je viens de dire dément bien tout ce que nos historiens nous disent , mais la vérité doit les combattre »[3] .

وعلى خلاف ما قاله الباحثون من أنّ فولتير قد دافع عن الإسلام و عن نبيّه ، و أنّه انتقلَ من النّقيض إلى النّقيض ، فإنّ المتصفّح لكلّ تفاصيل هذا المؤلَّف لَيجدُ أنّ فولتير لم يتعاطف مع الإسلام إلّا لما انكشف له فساد المؤلّفات التي قرأ و التي تناولت السّيرة النّبوية قبله ، و دليلُ ذلك أنّها تضمُّ فقرات ، خاصّة تلك التي جاءت بعنوان : de l'arabie et de mahomet ، فيها من الهجوم على شخصه -صلّى الله عليه وسلّم- الكثير ، فقد تناول سيرته بتهكّم و سخرية كبيريْن ، ابتداءً بزواجه و انتقالا إلى

[1]- Idem , p 259 .

[2] -Idem , p 263 .

[3] - Idem , p 263 .

دعوته و وصولا إلى معاركه مع المشركين و فتوحات المسلمين من أتباعه خارج الحجاز ، كلّ ذلك بأسلوب ساخر و مستفزّ لمشاعر المسلمين . ثمّ يتناول فولتير موضوع أمّيته – صلّى الله عليه و سلّم – وينفي ذلك نفيًا تامًّا ، طالما أنّه – حسب وجهة نظره – كان بإمكانه وصف عقاقير طبّية بل تغيير التّقويم التّاريخي . ليصل إلى وفاته ، فيعتمد على معلومة مغلوطة مفادها أنّه عيّن عليّا خليفة له ، غير أنّ المسلمين رفضوا ذلك و عيّنوا أبا بكر فعمر ، و كان ذلك هو السّبب – حسب الأديب الفرنسيّ الكبير – في التّفرقة التي غذّتها الفتنة الطائفية بين السُّنّة و الشّيعة .

ولا يتوانى فولتير في تشبيه أمجاد المسلمين أيّام الفتوحات بالبطولات الخيالية التي تغنّى بها هوميروس في إلياذته :

« les usages du temps de Mahomet ,d'Abubéker , d'Omar ressemblaient aux mœurs antiques dont Homère a été le peintre fidèle » [1].

وكلّ ذلك من باب الاستهزاء بالإسلام و السّخرية من السّير التي خلّدت هذه الوقائع التّاريخية .

و يختم فولتير هجماته بالتّأكيد على أنّ رسول الله – صلّى الله عليه و سلّم- نجح في نشر دعوته شاهرًا سيفه و لكن متمتّعا بشجاعة كافية ، حتّى تمكّن من تحقيق غرضه ، فلم يعد بحاجة إلى القوة ، ودعا إلى نشر التّسامح و السّلام بين النّاس ، أمّا رسول المسيحية ؛ فعاش مسالما مستكينًا ، وكانت رسالته مقدّسة و سمحة ، غير أنّ المسيحيين جعلوا منها ديانة رهيبة و بربرية .

« Bornons nous toujours à cette vérité historique ; le législateur des musulmans , homme puissant , établit ses dogmes par son courage et par ses armes ; cependant sa réligion devint indulgente et tolérante. L'instituteur divin du christianisme , vivant dans l'humilité et dans la paix , prêcha le pardon des outrages , et sa sainte et douce religion est devenue , par nos fureurs , la plus intolérante de toutes, et la plus barbare » .[2]

فازدواجية الموقف عند فولتير ، ولّدت صورتين للرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – في مؤلّفاته ، فهو حينا يتمدّحه ، و أحيانا كثيرة يهاجمه و يصفه بأوصاف لا تليق بشخص نبذَ العصبيّة و الطبقيّة و يزعم

[1]- Idem , p252 .

[2] - Idem , p 265.

أنّه يدعو إلى المساواة بين جميع البشر على اختلاف دياناتهم و انتماءاتهم ، فيقول : " لا تسمح ياربّ بأن تعدو الفوارق الطفيفة التي هي السّمات المميّزة لتلك الذّرات المسمّاة بشرا ؛ علامات حقد واضطهاد ... فإن لم يكن من سبيل إلى تفادي آفات الحرب و ويلاتها ، فلنتفاد على الأقلّ أن نتحارب و نتذابح فيما بيننا أيّام السّلم " [1] .

و إن كان فولتير يبدي بعضَ الاحترام للإسلام و لرسوله – صلّى الله عليه و سلّم- فذلك لا يأخذ مساحة كبيرة من المؤلَّف الذي خصّصه للهجوم عليهما و للتّأكيد على أنّ القرآن ابتكارٌ محمّديّ .

2- **غوته** : (1749م- 1832م)

يعدُّ الشاعر الكبير يوهان فولفغانغ فون غوته من أدباء الغرب الذين استعانوا بخطابيْن مختلفيْن في تناول سيرته – صلّى الله عليه و سلّم- و إن كان ذلك على مراحل زمنية متباعدة ، ذلك أنّه " من نقل مسرحية فولتير المسيئة للنبيّ من الفرنسية للألمانية " [2] ، ولقد عُرضت بالفعل في ألمانيا سنة 1799م ، ومع أنّ التاريخ يشهد بأنّه اعتذر على فعل ذلك ، خاصة و أنّه لا يوافق فواتير في جميع ما ورد فيها من اتّهامات للرسول – صلّى الله عليه و سلّم- " فستبقى ترجمته لهذه المسرحية نقطةً سوداء في صفحة حياته و أدبه و تديّنه " [3] .و لا يُعرف سبب إقدام غوته على هذا الفعل ؛ أي ترجمة هذا النّص السّخيف والذي لا يحمل أيّ مقوّمات فنيّة يستحقُّ لأجلها الإشادة ، سوى أنّ صاحبه الأصليّ استخدمه للهجوم المقنّع على الكنيسة التي يمقت . فغوته بذلك " أسهم في تكريس الصور النّمطية و ترسيخها في الأذهان ، خاصة و أنّ المسرحية لا تزال فصولها محلّ بحث و دراسة من طرف المهتمّين و المتخصّصين الذين يسهمون بدورهم في نشر و إذاعة تلك الصّور الذّهنية بشكل واسع " [4] . و مع ذلك ظهرت بعض البحوث التي تناولت حياة غوته المعرفية ، تُنكر إقدامه على هذه التّرجمة ، و تصوّر بغضه لهذه المسرحية ، من ذلك ما

---

[1]- فولتير : رسالة في التّسامح ، ص 169- 170 .

[2]- عبد الرّاضي محمّد عبد المحسن : الرّسول الأعظم في مرآة الغرب ، ص 56 .

[3]- حسن عزوزي : الأسباب التاريخية للصوّر النّمطية السّلبية عن الإسلام و المسلمين في الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية وسبل تجاوزها ومواجهتها . دط . منشورات مركز الدّراسات و الأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام ، فاس، 2008م . ص 05.

[4]- المرجع نفسه ، ص 06 .

قالته كاترينا ممسين من أنّه من " فرط بغضه لمسرحية فولتير ، منعَ أخته كورنيليا من المشاركة في إعادة عرض المسرحية " [1] ، و رأت أنّه ألّف أخرى ، هي : الدّراما المحمّدية و قد تناول فيها بعثة النّبيّ – صلّى الله عليه و سلّم – و كيفية تبليغه الرّسالةَ و كذا معاناته في تبليغ رسالة التّوحيد [2] .

وبعد أقلّ من عقد من الزمن ، وضع غوته رائعته " فاوست" ، و يرى بعض الباحثين أنّه " لم ترد فكرة فاوست على خاطر غوته إلا عندما قرأ القرآن " [3] ، و دليل ذلك أنّه لم يتأثّر بما ورد في المسيحية عن المعصية الأولى و التي أصبحت متوارثة من جيل إلى جيل ، فكان لزامًا على البشر أن يبدوا النّدم و يطلبوا المغفرة ما حيوا ، أمّا في الإسلام فلا معنى للخطيئة الأولى ، لأنّ الله بعث للبشر رسلا لتهديَه إلى الصّراط المستقيم ؛ رحمةً بهم .

أضحى غوته مولعًا بقراءة القرآن المترجم و السّيرة النّبوية و المعلّقات الجاهلية التي وصفها بقوله : "قصائد مديح نالت الجوائز في المباريات الشّعرية ، و قد نُظمت في العصر السّابق على مجيء محمّد ، وكُتبت بحروف من ذهب ، و عُلّقت على أبواب بيت الله الحرام في مكّة ... و هذه القصائد تزوّدنا بفكرة وافية عن علوّ الثقافة التي تميّزت بها قبيلة قريش التي منها محمّد " [4] .

و يبدي غوته إعجابا كبيرا بالمعلّقات السّبع ، و يصف كلّ معلّقة على حدة بأجمل الألفاظ و أعذبها ؛ فيُشبّه معلّقة لبيد مثلا بالرّعوية الثانية للشّاعر الرّوماني فرجيل [5] .

فقد جهد غوته في التعرّف على التراث الإسلامي و العربيّ و الفارسيّ ، وكانت ثمرة جهده كتاب "الدّيوان الشّرقيّ للمؤلّف الغربيّ " الذي نشره سنة 1819م ، و الذي أعلن فيه أنّ محمّدا – صلّى الله عليه و سلّم- " نبيّ و ليس شاعرا ، و تبعا لذلك إنّ القرآن يجبُ أن يُعدُّ قانونا إلهيًّا لا كتابا إنسانيًّا كُتب من أجل التّعليم أو الإمتاع " [6] ، و هذا الكتاب ألّفه غوته في السّبعين من عمره ، فكان قد بلغ من

---

[1]– كاترينا ممسين : غوته و الإسلام ، رؤية قديمة لعالم معاصر . دط . ترجمة : شيرين حامد فهمي . مكتبة الشّروق الدّولية ، القاهرة ، دت. ص 43.

[2]– يُنظر : المرجع السّابق ، ص ن .

[3]– نور الدّين بوكروح : مالك بن نبي و الفكر الألماني ، عن موقع الجزائر اليوم ، تاريخ التصفّح : سبتمبر 2016م .

[4]– غوته : الدّيوان الشرقي للمؤلّف الغربيّ . ط 02 . ترجمة : عبد الرّحمن بدوي . المؤسسة العربية للدّراسات و النّشر ، بيروت، 1980م . ص 375.

[5]– المصدر نفسه ، ص ن .

[6]– المصدر نفسه ، ص 391 .

النّضج ما جعله يُصحّحُ مفاهيمه السّابقة عن الإسلام و عن رسوله الكريم ، فقال في مقدّمة كتاب "المحمّديات" لديسون الألماني :

انظروا إلى الصّخر

كيف يلمعُ مثل النّجمة

عبر السّحاب تقترب

أرواحُه الجميلة الشّابة

بين الأجراف و الشّجيرات

بانتعاشة الشّباب

يرقصُ في وسط السّحاب

لينزل على الصّخر الرّخاميّ

و لكنّه يحفل مرّة

أخرى بالسّماء

وبين مضايق الجبال

سار يتتبّعُ الحصى الملوّن

وبخطى أقدام القائد

شدّ معه إخوانه

و أخذهم معه[1]

إلى أن يقول :

و الآن يعلو و يكبر

حمل معه الأمراء

و في وسط انتصاراته

أعطى للبلدان أسماء

[1] – كاترينا ممسين : غوته و الإسلام ، ص 43.

و دانت المدن تحت قدميْه [1]

وظلّ غوته يُعبّرُ عن حبّه للإسلام و يمدحُ رسوله – صلّى الله عليه وسلّم- حتّى النّهاية التي وافته في مدينة فيمار الألمانية سنة 1832م ، فقبل موته بأربعة أسابيع ، وهو في عامه الثّاني و الثّمانين ، كتب : "من أجل أن يتحرّر البشر من الخوف انتهوا بإلقاء أنفسهم في حضن الإسلام واثقين في الله و في أقداره غير المكشوفة لنا " [2] ، و ظلّ يقول : " إذا كان الإسلام معناه التّسليم لله ، فعلى الإسلام نحيا و نموت جميعا " [3] . وهذا ماأكّده بنفسه في مذكّراته الموسومة : " الشّعر و الحقيقة " ، فقد رأى أنّه ليس بمقدوره أن يُصوّر هذا الرّجل العظيم – أي الرّسول الكريم – كمخادع ، فلذا قد اعتزم على سرد سيرته في عمله الإبداعيّ، ثُمّ عبّر عن أسفه لأنّ كلّ ذلك ظلّ حبرا على ورق ، فلم يستطع إتمام إلاّ الأشعار التي نظمها بغية توشيح الدّراما ، وأنّ ترتيلة محمّد وحدها خرجت إلى الوجود ضمن أشعاره المعروفة :

« Ne pouvant voir un imposteur dans cet homme hors ligne, je commençai par le présenter comme se convertissant lui – même … tel était le plan d'un ouvrage dont mon esprit s'est longtemps préoccupé ainsi que j'en avais l'habitude , avant de passer à l'exécution , je n'ai cependant terminé que les hymnes qui devaient y entrer , et dont un seul a été inséré dans mes poésies , sous le titre de ; Chant de Mahomet » [4].

و نختم الحديث عن غوته بهذه الأبيات التي يمكن عدُّها كاعتذار من غوته لسيّد الخلق أجمعين ، لِما قاله يوما في حقّه :

حينما كان يتأمّلُ في الملكوت

جاءه الملاكُ على عجلٍ

جاء مباشرةً بصوت عالٍ و معه النّور

اضطرب الذي كان يعملُ تاجرًا

---

[1]– المرجع السّابق ، ص 44 .

[2]– سيّد بن حسين العفاني : وامحمّداه ، إنّ شانئك هو الأبتر . ط 01. دار العفاني ، القاهرة ، 1427هـ/ 2006م . ص 299.

[3]– غوته : الديوان الشرقي ، ص 37.

[4] – Goethe : Mémoires de Goethe . Traduction par : La Baronne Aloyse de Carlowitz. Charpetier , librairie – éditeur ,Paris , 1928 .p 324 .

فهو لم يقرأ من قبل و قراءةٌ

كلمةٍ تعني الكثير بالنّسبة له

لكنّ الملاك أشار إليه

و أمرَه بقراءةِ ما هو مكتوبٌ

ولم يُبال و أمرَه ثانية: اقرأ

فقرأ لدرجة أنّ الملاك انحنى

واستطاع القراءة

واستمع الأمرَ و بدأ طريقه[1]

3- **فيكتور هيغو** : [1802م-1885م]

انتشرت معلومةٌ على مواقع الأنترنيت تفيدُ أنّ فيكتور هيغو أسلم قبل موته سنة 1885م و تَسَمَّى باسم أبي بكر و طلب أن يُدفنَ في المسجد الكبير المقام في باريس ، و مثلُ هذا الخبر كان سببا في تهكّم الفرنسيين ، خاصة و أنّ المسجد المذكور لم يُبْنَ إلا بعد ثلاثين عامًا من موت الكاتب الكبير ، و قد تمّ افتتاحه سنة 1926م .

وسببُ تصديق هذه الإشاعة في الأوساط المسلمة ؛ تمثّل في قصيدة نظمها الشّاعر عن الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – في مؤلَّفه : " أسطورة الأزمنة " La légende des siécles ، و عنونها بـ: "العام التّاسع للهجرة" "L'an neuf de l'hégire" و الذي يُصوّر خلالها أيّامه الأخيرة – صلّى الله عليه و سلّم- فيقول في أحد مقاطعها :

Il n'est pas d'autre Dieu que Dieu

Combats pour lui

و يقولُ :

[1]- كاترينا ممسين : غوته و الإسلام ، ص 86 .

Le lendemain matin , voyant l'aube arriver
Aboubékre , dit – il , je ne puis me lever
Tu vas prendre le livre et faire la prière
Et sa femme Aischa se tenait en arrière
Il écoutait pendant qu'Aboubékre lisait
Et souvent à voix basse achevait le verset
Et l'on pleurait pendant qu'il priait de la sorte
Et l'ange de la mort vers le soir à la porte
Apparut , demandant qu'on lui permit d'entrer
Qu'il entre « on vit alors son regard s'éclairer »
De la même clarté qu'au jour de sa naissance
Et l'ange lui dit ; Dieu désire ta présence
Bien , dit- il . Un frisson sur les tempes courut
Un souffle ouvrit sa lèvre et Mahomet mourrut[1]

ففي هذه المقطوعة ، تحدّث هيغو عن المرحلة الأخيرة في حياة سيّد الخلق صلّى الله عليه و سلّم ، وكيف أمَّ أبو بكر النّاس بدلا عنه – صلّى الله عليه و سلّم- و صوّر كذلك حضور عائشة إلى جانبه في هذه الفترة ، وتحدّث أيضا عن مجيء ملك الموت إليه – صلّى الله عليه وسلّم- لينبّئه بموعد الرّحيل .

و للإشارة فإنّ أبياتا شعرية شيطانية دُسّت وسط الأبيات الأصلية ، فلا يُصدِّق عاقلٌ أنّ هيغو نسبها إلى الرّسول الكريم على ما فيها من فحش و خروج عن الآداب . غير أنّه نظم حقًّا أبياتا أخرى مجّد فيها شخص المسيح على لسان الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم- فقال :

Je suis la force , enfants ; Jésus fut la douceur
Le soleil a toujours l'aube pour précurseur [2]

زدْ على ذلك أنّ ما قدّمه المسلمون كأدلّة على إسلام هذا الرّوائي الرّومانسي ؛ ليست بالقوّة المطلوبة في هذه المواقف . فقد ذكروا مثلا أنّه كان يتلو الفاتحة بصوتٍ خفيضٍ و أنّه امتلك في بيته سجّادة صلاة

[1]- Victor Hugo : La légende des siècles . Maison d'édition Hetzel , Paris , 1859. P 65.
[2] - Idem , p 63.

كما أنّه كان يرى من حين لآخر رؤى عنه –صلّى الله عليه وسلّم– و غير ذلك ممّا قدّمه مسلمو اليوم من أدلّة في مواقع الأنترنت الكثيرة ، علمًا أنّها أدلّة غير مثبتَة ولا مقنعِة ، و الدّليل على ذلك هو أنّ الفرنسيين استطاعوا دحضَها بسهولة .

ثُمّ إنّ فيكتور هيغو أدرج أبياتا في قصيدته الشهيرة : " العام التّاسع من الهجرة " تثبتُ أنّه لم يعدّه– صلّى الله عليه وسلّم– نبيّا مرسلا ، بل إنّه نعّته بأوصاف أقلّ ما يُقال عنها أنّها غير مناسبة لشخصية الرّسول الكريم ، فكيف له أن يكون مسلمًا .

كما أنّ الخطاب المزدوج الذي اعتمده في القصيدة المذكورة سالفا ؛ يؤكّد ذلك بقوة ، وخير مثال على ذلك قوله في أحد مقاطعها :

Moi , comme être vivant , retenez bien ceci
Je ne suis qu'un limon par les vices noirci
Et mon corps par le mal est tout déshonoré[1]

ويعفُّ المقال أن يترجم هذه الأبيات التي تضمّ معانٍ و كلمات تسيء إلى شخص سيّد الخلق أجمعين ، وإنّما تمّ إيرادها هنا في هذا الموضع للدلالة على أنّ صاحبها لم يُسلم على أغلب الظنّ .

كما أنّ له قصيدة أخرى في ديوانه " الشّرقيات" Les orientales هي : الحجاب Le voile ويتحدّث فيها هيغو عن فتاة شرقية مسلمة ، اتّهمها إخوتها بأنّها نزعت برقعها (حجابها حسب هيغو) عن وجهها حين عودتها من حمام المدينة ، فتآمروا على قتلها . ويصوّر توسّلات هذه المسكينة لهم حتّى يصرفوا النّظر عن ذلك بأسلوب جميل وحزين ومؤثّر ، موحٍ بما في الشرق من مظالم :

Qu'avez-vous , qu'avez- vous mes frères ?
Vous baissez des fronts soucieux
Grâce ! qu'ai- je fait ? Grâce ! grâce !
Dieu ! quatre poignards dans mon flanc
Ah ! par vos geneux que j'embrasse
ô mon voile ! ô mon voile blanc !

[1]– Idem , p 64.

ne fuyez pas mes mains qui saignent
mes frères , soutenez mes pas !
car sur mes regards qui s'éteignent
s'étend un voile de trépas [1]

وكما يُلاحظ فإنّ هيغو كان مبالغًا في نقل هذه الصّورة عن الشرق و في وصف المسلمين بالجفاء والغلظة و لجوئهم إلى القتل لأتفه الأسباب، خاصة أنّه فضّل أن يختم الحكاية بمقتل الفتاة البريئة . وكما يبدو ففي ذلك تعريض بما يحدث في بلاد الإسلام من مظالم ، ممّا يُسمّى بجرائم الشّرف ، و تعبيرٌ عن رفضه لذلك .

و مع ذلك ، فإنّ إسلام هيغو يظلّ لغزا ، رحل حلّه معه ، فيكفيه أنّه كان ممّن دافعوا عنه – صلّى الله عليه و سلّم – و أنصفوه و تناولوا سيرته بكثير من الموضوعية و تحاشوا التّعصب الدّيني الذي كان جزءا من مخطّط يهدفُ إلى تقويض أركان الإسلام و ذلك بالإساءة لسيرته – صلّى الله عليه و سلّم – .

4- **لا مارتين** [1790م- 1869م] :

و بشخصيته الفريدة ، استحقّ الرسول – صلّى الله عليه و سلّم – أن يُذكر في مؤلّفات أشهر الأدباء في الغرب ، حتّى ممّن كانوا يُنادون بالرّبوبية و هي مذهبٌ فكريٌّ يؤمن بوجود خالقٍ للكون و لا يؤمن بالأديان و لا يحتكم إلى النّصوص الدّينية أو الكتب المقدّسة . و من أشهر معتنقي هذا المذهب ؛ الشاعر الفرنسيّ الكبير ألفونس دو لامارتين صاحب أشهر الأعمال الأدبية الرّومانسية ، و لأنّ هذا المذهب " يُمجّدُ الاغتراب و الحنين إلى الزّمان البعيد " [2] ، فقد اختار لامارتين الشرق كوجهة لهذه الرّحلة ، وكان محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- أفضل شخصية عنده لتمثيل الزّمان البعيد . ومن هذا المنطلق وضع كتابه " تاريخ تركيا " سنة 1854م ، ووضع له مقدّمة طويلة عنونها بـ : "حياة محمّد" و لم يولها الباحثون في تاريخ الرّومانسية الفرنسية أيّ اهتمام ، فعلى ما يبدو أنّهم " تعمّدوا إهمال هذا الجانب الفكريّ في حياة

---

[1] – victor hugo : le voile

نقلا عن موقع : poésie française. fr ، تاريخ التصفّح : سبتمبر 2016 .

[2] – محمّد قوبعة: مختارات من كتاب "حياة محمّد" لألفونس لامارتين .ط01. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشّعريّ، الكويت، 2006م. ص 06.

هذا الشاعر الرّائع " [1] ، خاصة و أنّه في هذه المقدّمة التي أصبحت كتابًا مستقلاً يتصدّر الأجزاء السّبعة لكتاب " تاريخ تركيا " ؛ سجّل إعجابه الكبير بشخصية محمّد – صلّى الله عليه وسلّم – " فلم يكن مقلّدا في هذه الدّراسة ، و لم يكن مجحفا على غرار ما فعله بعضُ المستشرقين ، بل لعلّه كان أقرب منهم جميعا إلى روح الدّين الإسلاميّ ، و إلى الحياة الشّخصية للرّسول صلّى الله عليه و سلّم "[2] ، و مع أنّه من الرّبوبيين الذين يناصبون الكتبَ المقدّسة و الأنبياءَ العداءَ ، ويتمثّل هدفهم على ما قال هو نفسه "في نسف المعتقدات الزّائفة التي تقف بين المخلوق و الخالق ، وإرجاع الله للإنسان و إرجاع الإنسان لله ، وبعث فكرة الألوهية المجرّدة المقدّسة في خضمّ الآلهة المادية المشوّهة " [3] ، إلا أنّه يقول عنه – صلّى الله عليه و سلّم– : " فيلسوفٌ ، خطيبٌ ، نبيٌّ ، مشرّعٌ ، مقاتلٌ ، فاتقُ أفكار ، باعثُ عقائد في شريعة لا صور فيها و لا تماثيل ، مؤسّسُ عشرين مملكة على الأرض و مملكة روحية ، ذاك هو محمّد " [4].

ثُمّ إنّ لامارتين لا يتوانى عن المزج بين التّعاليم المسيحية و القيم الإسلامية ، فيقول : " إنّ الإسلام هو المسيحية المطهّرة " [5] ، و يقول : " من الواضح أنّ القرآن في حروفه و روحه هو الثمرة التي أينعت في الصحراء بعد بذرة الإنجيل " [6] .

و يمضي لامارتين في سرد سيرة الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم – بسماحة و تعاطف قلّ نظيرهما عند أمثاله من الذين يشكّكون في وجود الأنبياء ، فيقولُ عن إنجازات أشرف الخلق : " فتحُ ثلث المعمورة على عقيدة التّوحيد انتصارٌ معجزٌ ،ولكنّه ليس في الحقيقة معجزة الإنسان ،و إنما هو معجزة انتصار العقل" [7]،

---

[1]– مرزاق بقطاش : الشاعر لامارتين والرّسول صلّى الله عليه و سلّم . جريدة المساء ، بتاريخ 18مارس2015م ، الجزائر .

[2]– المرجع نفسه .

[3]– محمد قوبعة : مختارات من كتاب محمّد لألفونس لامارتين . ص 09 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 122 .

[5]– عمر كوش : كتاب ألفونس دو لامارتين " حياة محمّد" بين المخيّلة الرّومانسية و الاستشراق. جريدة الحياة السعودية ، عدد ذي القعدة 1427هـ/ ديسمبر2006م، الرّياض .

[6] – المرجع نفسه .

[7] – السيّد ولد أباه : الشاعر الفرنسي لامارتين في مديح المصطفى . جريدة الشرق الأوسط ، عدد ربيع الأوّل 1427هـ/ أفريل 2006م، لندن .

ويختم بقوله : " هذا هو محمّد ، فبكلّ المقاييس التي نزن بها عظمة الإنسان ، فمن ذا الذي يكون أعظم منه ؟ " [1] .

و بذلك فقد ألهم الرّسولُ – صلّى الله عليه و سلّم – الشّاعرَ الكبيرَ، فتناول جوانب العظمة و العبقرية في شخصيته ، شخصيةٌ جعلت من القبائل المتناحرة أمّة عظيمة يُحسبُ لها ألف حساب، ومع أنّ لامارتين لم يكن يؤمن بالأنبياء و لكنّه آمن و صدّق رسالة الصّادق الأمين ، و نظر إليه بمعيار الإنجازات التي حقّقها في ظرف وجيز ، فقال عنه : " محمّد ... قلقل جيوشا و تشريعات ، و زرع ممالك و هزّ شعوبا وعروشا ، بل إنّه هزّ فوق ذلك معابد وآلهة و أديانا و أفكارا و معتقدات و أرواحا ، وأقام على أسس كتاب صارت كلّ كلمة فيه قانونا ، انتماء إلى أمّة روحية تجمع شعوبا من مختلف اللغات و الأجناس ، وطبع في تلك الأمة بأحرف لا تمحى مقتَ الآلهة الزّائفة و عشقَ الله الواحد المجرّد " [2]

5- **تولستوي** : [1828م – 1910م]

و لا يتمكّن المرءُ من ختم البحث دون الحديث عن أديب كبار من العالم الغربيّ ، كان احترامه لشخص الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – كبيرا و مذهلا ، فهذا تولستوي رأى تحامل المبشّرين في بعض مناطق روسيا التي يتواجد فيها المسلمون بقوّة ، على الإسلام و كذبهم على الرّسول الكريم ، فجمع بعضا من أحاديثه – صلّى الله عليه و سلّم- فيما يشبه المقال ، وقال في مقدّمته : " هذه تعاليم صاحب الشّريعة الإسلامية ، وهي عبارة عن حِكم عالية و مواعظ سامية تقود الإنسان إلى سواء السّبيل و لا تقلّ في شئ عن تعاليم الدّيانة المسيحية " [3] . و في كتابه " حكم النّبي محمّد " أثنى على الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – بعد أن صوّر حياة العرب قبل الإسلام ، و التي كانت مبنية على القسوة و الثّأر " فقضى محمّد على ذلك جميعه و نادى بعبادة الخالق سبحانه و تعالى و ساوى جميع العرب أمام الله و حرّم الانتقام و منع سفك الدّماء " [4] ، لينتهي تولستوي إلى قناعة مفادها أنّ ما قام به هذا الرّسول الكريم "يدلُّ على أنّه من المصلحين العظام و على أنّ في نفسه قوّة فوق قوّة البشر " [5] .

---

[1]- المرجع نفسه .

[2]- محمّد قوبعة : مختارات من كتاب "حياة محمّد " لألفونس دو لامارتين ، ص 09.

[3]- تولستوي : حكم النّبي محمّد . ط 03. ترجمة : سليم قبعين . المصرية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 1987م . ص 05.

[4]- المصدر نفسه ، ص 35 .

[5]- المصدر نفسه ، ص ن .

و مع ذلك ، فإنّ تولستوي يرى بأنّ ما عرفه محمّد – صلّى الله عليه و سلّم – عن التوراة و الإنجيل ، جاء كنتيجة " لميله للأبحاث الدّينية حتى إنّه كان يناقشُ اليهود و النّصارى ، و من هذه المناقشات عرف أشياء عن موسى و المسيح ... و عرف أنّه يوجد إله عظيم لم تصنعه الأيدي البشرية " [1] ، علما أنّ السِّير النّبوية التي وضعها المسلمون تُخالف هذا الرّأي . و هنا يستشعرُ قارئ الكتاب أنّ تولستوي يتحاشى الاعتراف بكونه – صلّى الله عليه و سلّم – نبيّا ، ويَعدُّ أنّ ما أوحيَ إليه كان مجموعة رُؤى " دعاه في خلالها هاتف ليكون نبيّا يدعو أمتّه لمعرفة الإله الواحد ... فعزم بعدها دون تردّد على دعوة أمّته لمعرفة الإله الواحد ... و إلى معرفة الحقّ و صمّم العزم على تطهير البلاد من الأصنام " [2] . كما يقول في موضع آخر من الكتاب ما يؤكّد أنّ تولستوي لا يعترف بنبوّة الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم- بل يعدّه مصلحا اجتماعيا : " كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب و أنّ ديانة قومه ديانة كاذبة و أنّ هناك إلها واحدًا حقيقيًّا لجميع الشعوب ، و قد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمّد حتى قام في نفسه أن يدعو أمّته ومواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الرّاسخ في فؤاده ، و قد دفعه عامل داخليّ إلى أنّ الله اصطفاه لإرشاد أمته و عهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة " [3] ، كما ينسب لأصحابه – صلّى الله عليه و سلّم- صفة التشدّد دون عنف جسديّ في الذّود عن الإسلام ، فيقول : " لم يبيحوا سفك الدّماء للحصول على الأموال أو غيرها من متاع الدّنيا من جانب ، فإنّهم من الجانب الآخر لم يُبيحوا التّهاون أو التّخاذل أمام أولئك الذين أصرّوا على البقاء في الضّلال " [4] . وقد جمع تولستوي بعد ذلك عددا كبيرا من الآيات القرآنية ، و قدّمها لمن يريد الحكم على الإسلام و مبادئه و روح تعاليمه ، كلّ ذلك في تسامح دينيّ لا يوصف.

و مع ذلك ، فالموضوعية تقتضي أن يتمّ الرّدّ على من زعمَ أنّ تولستوي اعتنق الإسلام و أنّه مات مسلما ، فالحقّ أنّه كان رجلا فاضلا ؛ أعلى راية المحبّة و العدالة و المساواة بين الناس ، ولم يكن ليرضيَه أن يرى و يسمع عن المظالم التي تُرتكبُ في حقّ البشر ؛ مسلمين كانوا أو مسيحيين ، فقال أقواله الشهيرة في الدّفاع عن الإنسان أينما كان و كيفما كانت ديانته التي يعتنق ، وحين يذكر بعض الباحثين عندنا في

---

[1]- المصدر نفسه ، ص 36 .

[2]- المصدر نفسه ، ص 37 .

[3]- المصدر نفسه ، ص 08 .

[4]- المصدر السّابق ، ص 12 .

سيرته أنّه " لما كتب رأيه في هذا الدّين الذي أعجب به و تحدّث عن رسوله الذي نال إكباره ، كان جزاؤه على ذلك ؛ أن حرمه البابا من رحمة الله " [1] ، فالحقيقة أنّه كان رافضا للفكر الكنسي المتزمّت و دعا إلى السّلام وعدم استغلال الفقراء ، فاستاء رجالُ الدّين المسيحيّ الأرثوذكسيّ من مواقفه ، و كفّروه و أبعدوه، خاصة بعد أن اعترف في كتابه " اعتراف تولستوي " قائلا : " قد رافقني هذا النّفور من الدّين ، كما يرافقني الآن ، و كان له في حياتي نفوذا فعّالا كما لو في حياة جميع المولودين في المحيط نفسه الذي ولدتُ فيه " [2] . كما أنّه اتّهم الكنيسة في روسيا بتشجيع القتل و الجريمة تحت غطاء الدّين ، فيقول : " كانت روسيا في هذا العهد منخرطة في حرب ، و كان النّاس الروس ،باسم المحبّة المسيحية ، يقتلون إخوتهم في الإنسانية ... و كان النّاس يصلّون في الكنائس من أجل نصر جيوشنا و زعماء الكنيسة ، كانوا يقبلون كلّ جرائم القتل هذه كأنّها نتائج لابدّ منها للمحافظة على الإيمان " [3] .

كان هذا ما سبّب له الخلاف مع رجال الكنيسة في روسيا ، فحرمته من حقوقه كمسيحيّ مخلص . وقد ختم اعترافاته بقوله : " ممّا لا شكّ فيه أنّ العقائدية كانت تحتوي على الكثير ممّا هو حقّ ، و لكنّها كانت أيضا بدون أقلّ ريب تحتوي على الكثير ممّا هو غير حقّ ، وأفصلُ أحدهما عن الآخر " [4] ، فكان أن توصّل إلى حقيقة الإسلام و عرف سماحته و تقبّله للآخر سواء أكان مسيحيًّا أم يهوديًّا " حتّى أباح لأتباعه التزوّج من المسيحيات و اليهوديّات مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهنّ ، و لا يخفى على أصحاب البصائر النّيرة ما في هذا من التّساهل العظيم " [5].

و كانت نتيجة ذلك ، أي اهتداؤه إلى معرفة الحقّ كما قال ، أن عرف عظمة الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – و ما قدّمه للبشريّة ، فقال مثنيا على سيرته العطرة : " كان من عظام المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة و يكفيه فخرا أنّه هدى أمّة برمّتها إلى نور الحقّ و جعلها تجنح

---

[1]- عبد الحليم محمود : أوربا و الإسلام . ط04. دار المعارف ، القاهرة ، دت . ص 64.

[2]- تولستوي : اعتراف تولستوي . ط 01 . ترجمة : انطونيوس بشير . مكتبة الفكر الجديد ، بيروت ، 2015م . ص10.

[3]- المصدر نفسه ، ص 122 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 126 .

[5]- تولستوي : حكم النّبي محمّد ، ص 10.

للسكينة و السلام ... و فتح لها طريق الرّقيّ و المدنية ، وهو عملٌ عظيمٌ لا يقوم به إلا شخص أوتي قوّة و رجلٌ مثل هذا جدير بالاحترام و الإكرام " [1] ، فيا لها من قولة حقٍّ يقف لها المرء وقفة إكبار و إجلال .

فمن رحمة به – صلّى الله عليه و سلّم – أنّه آثر أن يكون المدافعون عنه و عن سيرته العطرة ؛ أدباء ومفكرّين من الغرب الذي ظلمه كثيرا و اتّهمه بأبشع الاتّهامات ، فظهر هؤلاء و جعلوا منه قدوة و مثالا يُحتذى ، فسبحان الله و بحمده .

[1] – المصدر نفسه ، ص ن .